بيت الشاوي

La Famille Shâwy.

١ — بيوت بغداد

ان العصور المتأخرة قللت من شأن بغداد ، وجعلتها في الدرجة الدنيا عن سائر الاقطار والبلدان ، لان العراق اضاع مركزه السياسي ، والعلمي ؛ وفقد السيطرة على الممالك الاخر وعلى عقول الجماعات ، من امد بعيد ، ومدة طويلة جداً ؛ ولكنه مع هذا ، لم يفقد خصائصه ، وعلميته ، ومكانته الممتازة ،بالنظر الى اطرافه المجاورة ، وبالنظر الى عقلية اهليه ، ومزاياهم الطبيعية .

لذا نرى فيه صنوفاً قد امتازوا على غيرهم ، واشتهروا بخصائص علمية ، وسلوكية . جعلتهم بمكانة سامية وارقى من غيرهم وهذا ما دعا ان يعرف منهم كثيرون ، ويشتهروا بالعلم او المشيخة ، او الرياسة القبائلية وما ماثل ذلك.

كتبت بعض الرسائل ، والكتب ، عن بيوتات عراقية ، ونشر بعضها ؛ وان النفوس تتطلع الى مثل هذه المباحث ؛ والكل منا يود ان يكشف اللثام ، عما كان لها من مكانة ماضية ؛ ومنزلة رفيعة ، ومن تأثيرات عملت فيها ، وعلاقة اتصل اهلوها بها ،واواصر ربطتهم بها .

وغالب ما رأينا لا يخلو من اذاعة ، او نشرة ، ولا يسلم من مناقشة ولا يقوى على حجة ، وكل ما هنالك المدح الفارغ او الثناء العاطر الصرف . ولن تعلق اهمية كبيرة بمثل هذه الامور . اللهم إلّا ايضاحاً لمبدإ الاسرة (العائلة) او اوائل احوالها ، اعتماداً على محفوظات الاسر عن اصلها الغامض ، او عراقة النجار .

وعلى هذا عزمت ان اتكلم على بعض البيوت (العائلات) التي خدمت هذا المحيط ،واقامت في قيادته وادارته مدة. بأن قامت باعمال كبيرة متصلة بوقائعه او خدمة تعليمية ، او طريقة اصلاحية ، سواء أكان ذلك محصوراً في شخص ام توالى في اشخاص ، وهكذا جرياً على سنن الحق والصدق .

وعلى الرغم من قلة المصادر وندرتها ، او حرص اهليها على الاحتفاظ بهما

من دون اطلاع احد عليها ، لن ندخر وسعاً في البحث ، بياناً لحقيقة رجالاتنا السابقين ، واكابر علمائنا ومشايخنا ؛ وما احدثوه من اثر في الجماعة ، دون الاشادة بالمفاخر الكاذبة. ومعتمدنا الوثائق العلمية ، والادبية والمجاميع المتعددة .

وهنا يلاحظ انه لم يكن في العائلات المشهورة جميعها افذاذ وبصورة مستمرة متوالية ؛ فقد يكون هناك متوالون او متعاصرون ، فاذا تحقق في بعضها فهو لا يتحقق في الاخرى ؛ وهكذا المحيط لا ينجب إلّا احياناً بل قد يلد العصر فذاً واحداً، او عدة افذاذ . وقد تمر بنا عدة عصور اسلامية فلا نجد فيها كلها نوابغ بل لانقدر ان نقول : ان جميع اكابرهم نوابغ، فالوحيدون قليلون على حد ماقيل:

ما كل من طلب المعالي نافذاً فيها ولا كل الرجال فحول

وهذه اسرة نبيلة من الايلات البغدادية التي كان لها مكانة تاريخية ومركز ممتاز بين بيوتات بغداد المعروفة وقد توالى رجالها الواحد بعد الاخر فاقدم البحث عنها للقراء وهي : (بيت الشاوي) .

٢ — آل شاوي

— تمهيد —

ان الحكومة العثمانية حكمت العراق من زمن بعيد اي من سنة ٩٤١ هـ ثم تداولته الايدي بين ترك وعجم حتى استقر للترك . وخلص لهم. للهم إلّا في بعض ازمان فقد حدث في خلالها قلاقل واضطرابات داخلية ، ومنافرات خارجية دولية ادت الى الاستيلاء على بعض احيزائه ؛ ثم استعادت السلطة نفوذها .

وفي كل هذه الايام كانت الحكومة بين عوامل كثيرة ، تهدد كيانها وتدعو الى الوقيعة بها ، الى تشويشها .

وهذه الاحوال ساقتها الى ان تتخذ الوسائل للنجاة من هذه المآزق والاخطار فركنت الى تدابير من شانها ان تكون واقية لمواقفها الداخلية ومقاومة غوائلها الخارجية . وقد علمتها التجارب العديدة هذا السلوك ، سواء من وقائع مؤلمة، ام من حوادث نافعة ، ناجعة ، كانت قد راعتها ، وسعت سعيها للتوقي من نتائجها .

وليس في وسعنا الآن بسط القول في جميع هذه الوسائط التي مشت عليها لحفظ كيانها ، اذ ذلك يطول فلا نخرج عن الصدد الموضوع لاجله هذا المقال ،

وانما غاية ما نريده في هذا البحث ، بيان مكانة هذه الاسرة في تاريخ العراق ، وما لقيته من الادوار . واهم امر قامت به ان الحكومة استخدمتها لاجراء النفوذ على القبائل من طريقهم للتفاهم معهم ، او للسيطرة عليهم ، بتقوية النفوذ على القسم المناوئ ، واستعمالهم آلة قوية تجاه العشائر الاخر من عربية وغير عربية . كما ان الحكومة استخصت لنفسها اقواماً آخرين لمقاومة العرب ، ولايهمها تطاحن القبيلين ، او تأسس العداء بينهما ، بل ان توليد البغضاء هو الامر المبتغى .

ان الوقائع التي جرت ، والتطورات التي لحقت هذه الاسرة ، ونفوذها . والتبدلات من هذا النوع ، تؤيد ما قلته وتوضح بجلاء هذا الغرض فانها لما لم يبق لها امل في الاستفادة من هذا البيت ، وغضبت عليه ، وعلى اهله ، وقومه قربت غيره وحازفت معه ، فبذلت له كل مرتخص وغال ؛ بل كل ما استطاعت لنيل الغرض ؛ حتى ان الحكومة لم تكتف بكل ذلك بل اسكنتهم مساكن هذا البيت .

والامر لا يقتصر على هذا البيت ، او ذاك ، للقضاء على مقدرات هذا القطر بل هناك عوامل اخر توسلت بها الحكومة التركية من تقوية المذاهب المتخالفة والطرائق المتباينة ، والاقوام المتنوعة ، وهكذا كلما احست بقوة عملت لتوهينها مما ننتظر الفرصة عنه لتدقيق النظر في مباحثه .

وعلى كل حال ان اعظم خصيصة هذا البيت تعاطي « امور السياسة العشائرية » وعلاقة الحكومة بها فقد اتخذته الحكومة عقد التفاهم ، وواسطة المعرفة والاطلاع ثم امتد نطاق نفوذ هذا البيت الى ما وراء ذلك .

اما الحكومة فانها مشت على هذه الخطة من اوائلها الى امد غير بعيد منا : ولكن لم تستطع من التغلب على هذه السياسة ، ومراعاة اوضاعها : في جميع ادوارها ، اما لجهل بعض الولاة ، او لروح نزاعة في العشائر ، نبه اليها ضعف الحكومة . او سياسة وزرائها الخرقاء . بسبب الشذوذ عن الادارة الحكيمة التي ينبغي ان تسير بموجبها ، او غوائل اخرى فتحت العيون للقيام ... الخ مما لايكاد يستوفي الكلام على جميع وسائله بنظرة سريعة . ومن طالع التاريخ بانعام النظر تجلت له هذه الحقيقة بحذافيرها ، ناصعة لا غاشية عليها .

٣ — اصل هذا البيت

هـذه الاسرة من قبيلة عربية بحتة كريمة المحتد ، ونبيلة ، من قبائل حمير القحطانية . وهي « قبيلة العبيد » وهذه القبيلة نالت مكانة وشهرة بهذا البيت ، اذ ان القبيلة التي ليس لها احتكاك ما بالحكومة لا تشتهر شهرة تطبق الآفاق ، ويكون لها دوي في التاريخ ... وبسبب موالاة هذا البيت للحكومة ورضخه الطاعة لمطالبها ، وتمشية لنفوذها ، والتزامه لجانبها ، بحيث تحارب من حاربته وتصاحب من والته ، برهنت فعلا على خدمتها الصادقة وايدت اخلاصها .

ومن جهة اخرى ، ان رجال هذا البيت صاروا واسطة تفاهم بين الحكومة والعشائر الاخر ، فهم « عقد النظام » ، كلما طرأ خلل ، بادروا الى رتقه ، فقربوا النافر ، وخدعوا الغافل ، وناوأوا المحارب ؛ وهكذا حتى امنت الحكومة شر غوائل عديدة ، ولولا هذه السياسة لما استطاعت تأمينها .

٤ — رأس هذا البيت « شاوي بك »

لنا بحث مستوفى عن قبيلة العبيد التي منها هذا البيت وليس هنا محل بسط الكلام عنها ، والذي اقوله هنا ان رياسة قبيلة العبيد كانت ولا تزال في « فرقة البو شاهر » فهم بيت الرياسة . وان اول رئيس منهم اقام في بغداد هو « شاوي بن نصيف » ولم تقطع علاقته بالقبيلة . بل ان نفوذه كان بسبب سيطرته على هذه القبيلة ؛ فتمكن ان يؤلف القبائل التي تمت اليه بسبب القرابة والاخوة القبائلية حتى صاروا يميلون اليه لانه منهم ، ويركنون الى مقدرته ، ونفوذه لدى الحكومة فيقضي على اكبر غوائلهم ، وينهي حاجاتهم وسائر مهماتهم .

ولذا كان مسموع الكلمة ، وله الصولة ، والشرف لدى الحكومة ، يعز العشائر ويعتز بهم . ويكفيه فخراً ان تسمى هذا البيت باسمه . ولم تنقطع تلك العلاقة القبائلية ، لهذا البيت الى الآن . فالعبيديون لا يزالون الى زمن المرحوم عبدالمجيد بك الشاوي ، يركنون الى هذا البيت ويستعينون به إلّا ان النفوذ لم يبق الآن على القبيلة ولا على العشائر الاخر . ومع هذا لم يستغن عن رأيهم في توجيه بعض الامور العشائرية الى اواخر ايام عبدالمجيد بك الموما اليه .

والامل لم يعدم من النفوس فان رجالهم اليوم يتحفزون للتسامي والوثوب

الى اعلى مكانة ولهم منزلتهم المعروفة .

هذا وان شـاوي بك لم يعرف عنه شيء كثير . وعلى اكثر احتمال انه كان تقربه من الحكومة زمن الوزير حسن باشا في اوائل القرن الثاني عشر . وليس لدينا تاريخ توطنه بغداد بالضبط ولاملازمته للحكومة ولا ائتمارة باوامرها ولا عرفنا تاريخ وفاته ... مما بايدينا من الوثائق . وخير وثيقة تاريخية عثرنا عليها ما جاء في حديقة الوزراء في حوادث سنة ١١٥٢ هـ (١٧٣٩ م) بعد ان قص حادثة لاحمد باشا مـع عشيرة القشعم حينما هاجمهم بنفسه وبخـدمه ولم يكن معه احد قال : « وهذه عادة لابيه ايضاً . فانه قل مقدمة زبيد باربعة فوارس . وذلك كما حدثني والدي عن ابي عبدالله بك شاوي، انه قال كنت مع الوزير الحسن في غزوته زبيد ، وكان معنا ايضاً فارسان آخران مع الوزير يسير امام العسكر ، فاشتغلنا بالصحبة ، واطلنا احاديث المحبة ، حتى بعدنا عن العسكر ، بحيث لا يدركنا البصر . ولم نزل سائرين ، حتى اشرفنا على كثيب من رمل ممتد امامنا . فلما صرنا فوقه ، ابصرنا مقدمة الاعداء خلفه جائية . وجموعهم وراءها عادية . فألويت عنان فرسي ، فزجرني الوزير . واغرنا على المقدمة ، اغارة من يظن به ان قومه قريب منه فشتتنا جمعية المقدمة بعد ان كانت مجموعة ملتئمة ، واشتغل بيننا الاسمر ، وجرى منهم الدم الاحمر ، ولم تتلاءم الاعـداء بعضها على بعض ، إلّا والعسكر ادركهم . ففرق شملهم بعد الاجتماع ، وتركهم صرعى في تلك البقاع » اهـ (راجع ص ٣٠٢و٣٠٣) ومنها تعلم منزلته ويوافق تاريخ هذه الواقعة سنه ١١١٩ هـ ١٧٠٧ م

واليك ايها القارئ ما قيل عن هذا البيت في تاريخ عنوان المجد وهذا نصه:

« ومنهم (من بيوت بغداد) بيت المجد ، آل شاوي ، العبيدي ، الحميري وهو بيت علم ، وشجاعة ، وكرم . ورئاسـة ، ونجابة ، وادب ، وحسب ، ونسب . وكانت لهم الكلمة النافذة في جميع قبائل عرب العراق : ورياسة العرب لدى وزراء بغداد ، كالنعمان بن المنذر عند كسرى .

« وقد حازوا العلم ، والسيف ، والقلم ، وسائر المفاخر . وكان يعيش في كنفهم خلق كثير من كل صنف ، ولهم الصولة القاهرة بين القبائل » اهـ .

ان شاوي هـذا جدهم الاعلى ، وهو اول من عرف منهم في بغداد ، وهو الذي سالم الحكومة ، وعزم على موافقتها في خطتها ، وقاوم بنفسه، وبقبيلته : العشائر المعادية ، كما اشير الى ذلك . ولا يذكر له من الاوصـاف اكثر مما يوجد في رئيس قبيلة من كرم طباع ، وذكاء عربي خالص ، ونفوذ نظر للامور وسرعة حل ، وحسن تدبير وحلم : مما تعرف في رئيس حاذق ، عارف : ولذا نجد اخباره المدنية ، واعماله القومية ليست بالغريبة .

واهم ما فيه مما فاق به اقرانه ان تمكن من وفاقه للحكومة ، والرضى بمقترحاتها . واقام ببغداد تنفيذاً لهذه المطالب ، والحكومـة آنئذ بيد المماليك تقريباً ، فراعى طراز ادارتهم وماشى سياستهم .

ولعل حكومة المركز لم تنتبه لمثل هذه الامور ، لبعدها عن العراق لولا حكومة بغـداد ، واطلاعها على حقيقة الادارة ، واكتسابها اخيراً من السطوة والنشاط ما لا يوصف بهذا الوزير حسن باشا . ومع هذا كانت حكومة العراق بين عاملين : بين تسكين الداخل والتأهب لطوارئ الخارج .

في هذا الحين طبعاً تحتاج الحكومة الى مناصرة ومؤازرة من بعض القبائل . وكان من السياسة قضاء حاجات العربان، والتساهل عليهم ، على يد اميرهم «شاوي بك» والتوسط لهم بينهم وبين الاهلين للتفاهم وازالة الخلاف .

وبهذه الصورة حاز الموماً اليه كل قوة ومقدرة . فالحكومة لا تعرف غيره والعشائر لا يفاوضون سواه ، ولا يتفاهمون مع غيره ، ولا يلجأون الى امرئ عداه .

وتتوضح هذه الحقيقة بجلاء من مراجعة الوقائع التي دونها التاريخ في زمن اختلال الحكم ، واضطراب الاحوال بين امراء المماليك ، وبين وزراء الدولة او بالتعبير الصحيح وبين حكومة المركز (الاستانة) او بينهم وبين العشائر .

ومن ذلك الحين تيسر له ان يربي ولده عبدالله بك ويدربه على مثل هـذا المسلك . فقويت شوكته بعده ، وهو مجهز بوسائل معرفة اقوى واتصال بالداخل والخارج . واترك الكلام على عبدالله بك هذا الى المقال التالي ومن الله المعونة .

المحامي : عباس العزاوي